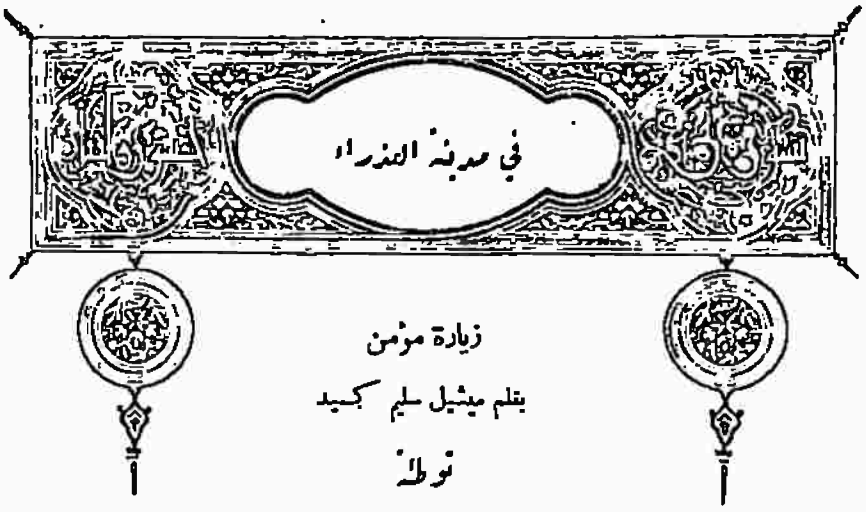

في مدينة العذراء

زيارة مؤمن

بقلم ميشيل سليم كميد

لورد

فها منذ الآن تطوبني جميع الاجيال ·
لان القدير صنع بي عظائم واسمه قدوس ·
ورحمته الى اجيال واجيال للذين يتقونه.

١

لورد ! ما احلى هذا الاسم ! يا له وميض ينير الدياجير ، وميض دائم لا يخبو ، وميض يلمع في النفوس التقية في ايمانها ، فيغذيها ويقوّمها ، ويهديها ! لورد ! اي قلب لا يختلج لذكراها ، بل اي امرئ به ذرّة ايمان لا تهتزّ مشاعره رهبةً وخشوعاً ! ان اسم لورد نسم هفهاف زكي ، تكتنف هالته وجدان المؤمن ، فيحلق عن كون الارضيات الضيق !.. اي موسيقى سماوية اسم لورد الحبيب الى فؤاد الكاثوليكي ، بل اي هالة عظمة وقداسة تروع نفسه التقية !

في لورد ينشد السقماء شفاء ، ويطلب الاشقياء عزاء وتوبة ، ويجد الابرار رجاء ومحبة·. ففيها الحمى والمقيل لكل فرد. لان فيها اختارت الحبل بها بلا دنس ان ترسل على العالم فيضاً من نعم ابنها الالهي · فتشفي المرضى ، وتهدي الخطأة ، وتثبت ذوي الايمان ... آه ، لا ازال اذكر ، ولن انسى ، كيف كنت اهتزّ شوقاً وخشوعاً ، وكم كنت ازداد اضطراباً ، والقطار يسيح في غياض واودية فرنسة الجميلة ، قاصداً لورد. وجميع ما فيه ايضاً واجف مراقب !...

ان مركز لورد في العالم الكاثوليكي ، يتبوأ ارفع الاكناف · وليس من كاثوليكي صادق لا يؤثر فيه الالماح اليها ، بل لا تهيج شجونه ، ولا

سيدة لورد

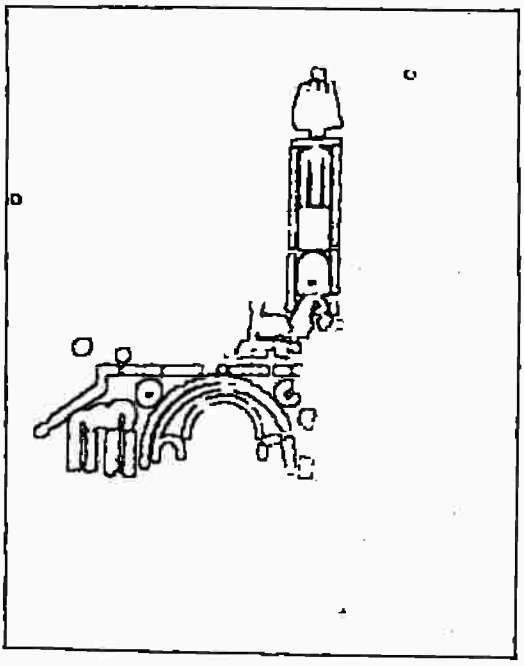

كنيسة لورد في ليل ٢٢ ٨ سنة ١٩٢٩
منوّرة بالكهربائية
مأخوذة من قاعدة التمثال الايمن

يفعم وجدانه تقوى ومحبة في هواها.

اردت في تجوالي في فرنسة، العام المنصرم، ان لا احرم زيارة الاحرام المقدسة فيها، يدفعني لذلك امران، اولا: ان انجز امراً يجب على كل كاثوليكي قضاءه، حين وجوده في تلك البلاد، وهو قضاء فريضة الزيارة لهذه الاماكن. ثانياً: ان ابحث عن تعمق العاطفة الدينية في فرنسة، واتبين اي نفوذ تملكه، وهو مطلب يستهويني اكثر من كل امر عداه... ولهذين السببين قومت نيتي على زيارة لورد بدئاً، ثم اتلوها بلزيو (*Lisieux*) مسقط رأس القديسة الصغيرة، تراززة الطفل يسوع. وصممت ان ابدأ زيارتي للاولى اوان الزيارة الاهلية الافرنسية، حين يهبطها جمع غفير من كل المقاطعات؛ من اصحاء وسقماء. فضلاً عما تدعى به من وفود اخرى من البلاد الاجنبية، من انحاء العالم قاطبة، القادمة لحضور هذه الاحتفالات الدينية الخاشعة الباهرة.

يقع موسم الزيارة الافرنسية[1] في التاسع عشر الى الثالث والعشرين من آب كل عام. فتغشاه الآلاف المؤلفة من ابناء فرنسة السعيدة، وقد صحت نيتي اذ ذاك، على مشاركتهم، والقيام بفرض «الزيارة اللبنانية المارونية» لسيدة لورد، فريداً وحيداً.

على الطريق

شاء القدر ان اصل تولوز بعد انتصاف الليل من صباح التاسع عشر. وكان عليّ ان انتظر قطار بياريتز، القائم عند السادسة صباحاً. فجلست على حقيبتي في فناء المحطة، والبرد يقرصني قرصاً شديداً، تصطك منه عظامي بالرغم من ثخانة ملابسي. واصوات القطارات تزعجني وتصمني: فتهجدت ليلتي رغماً، الى ان آن الوقت واصطفت حافلات القطار المنشود، فاتخذت موضعي؛ ولم

١) هناك مواسم زيارات للشعوب الاخرى. وكلها تقع في آب، وهي تقريباً على هذا التعديل: ايطالية من ١٠ الى ١٦، هولندة من ٨ الى ١٣، المانية من ٧ الى ١٣، النمسة من ١٣ الى ١٧، مالطة من ١٠ الى ١٤، ايرلندة من ١٣ الى ١٦، وقس على ذلك غيرها وكلها كما ترى ملاحقة بعضها البعض. ما عدا فرنسة فلا يشاركها احد رسمياً اوان زيارتها.

اكد حتى غص بالركاب.

واني كذلك ابصرت بكاهن يجوس خلال الحافلات حائرًا مثقلًا بالحقائب ، باحثاً عن فرصة يستقرّ فيها . فعزمت عليه وبعض رفقاء السفر ليأخذ مكاناً معنا . وما استقرّ ، وحطّ متاعه الثقيل ، حتى هبّ القطار من غفلته.

وتململ الفجر ، واشرقت الشمس . وكلنا تعب منهوك ، من متواصل السفر . فبدأنا نتثاءب ونتناعس طمعاً في قليل من الكرى ، فلم نفلح . وكانت جماعتنا من شتات المبادئ . هنا رفيقنا الكاهن بالرغم من وجه البادي عليه ، يتلو كتاب فرضه ، يقاربه ماسوني يحمل شارته في عروة سترته ، يتصفح صحيفته الماسونية — وقد غاب عني اسمها — وآخر من حزب الاكسيون فرانسيز ، كما يدلّ شغفه بجريدته . ثم احد المحررين بالايكو دي باري ، كما تبين لي من شرحه لرفيق له عن مواضيع جريدته . اما انا فكنت ساكتاً قانعاً بزاويتي ، امام الكاهن ، وقد امضني السهاد — ولم اكن نمت الا ساعة في ليلتي بطولها — اقلب دليل الفنادق بفتور ظاهر ، ولا انفكّ متفحصاً وجوه الرفقاء.

لم يطل المقام حتى اتصل بيني وبين جاري الكاهن تعارف حديث متقطع عرفت اثناءه ان خورنيته بسويسرة ، بالرغم من جنسيته الفرنسية ، ولذا هو في طريقه الى الزيارة الاهلية . ثم استعلمني عن وجهتي . فاطلعته على مطلبي لورد ايضاً ، بعد قضاء مأرب لي في بيارتز ولست ادري متى اقفل الى مدينة العذراء ، اليومي هذا ام غدي ؟ وجرنا الحديث الى الفنادق فمدح لي بوجه خاص نزلًا سينزله ، وسألني ان اوافيه اليه ، اذا ما انتهيت وقفلت ، فوعدته خيراً.

ومر القطار على لورد فتفارقنا ، وانزويت وحدي في الغرفة مع الرفيق الماسوني !

في لورد

في عصر ذلك النهار ، بارحت بيارتز ، وهبطت لورد مساء . فقصدت حالًا النزل الذي هداني اليه الكاهن . وهناك فوجئت بازدحامه بالزوار . واني

كذلك في حيرة وبلبلة ، اذ برفيق السفر ، قد ظهر فجأة ، كأن النعمة الالهية بعثته لمساعدتي . وصاح بي « ايه يا صاح ، لقد رجعت سريعاً ! » . . . وسمى فأعطيت غرفة شاغرة للغد فقط ، على شريطة اخلائها صباحاً .

محلة لورد تتناسق مع تأثيرها الديني ؛ وفرنسة باجمعها بلاد موسيقية المناظر ، كلفتها الجميلة ، لا تعقّد فيها ، ولا حشو ، ولا لغو ، كل شيء سهل في مناعة ، لين في قوة ، فالبلدة غير كبيرة ، تعج بالفنادق ، غير ذات ساحات او ميادين ، شوارعها ومسالكها في ضيقة والتفاف . تكتنفها الجبال من كل ناحية ، فتملأها روعة ، وتكسوها بهاء وجلاء ، وتزيدها جلالاً في نفس الزائر .

ولعمري لست ادري ، ماذا يحوط المرء من هيبة وخشوع ، وهو يشرف من مشرف عالٍ على المدينة الملهمة . بل ما هي تلك العواطف النابضة التي تأخذ عليه وجدانه . . . فلله يوم نزلت بساحتها . انه سجل في حياتي لا انساه . . .

في تلك الليلة ذاتها تعرفت برب النزل وعقيلته وآله . وما تبلغت عشائي ، حتى وافاني احد ابنائه ، ودعاني الى مشاهدة الطواف الليلي بالمشاعل . فلبيت دعوته مسروراً .

طواف المشاعل

وهناك في باحة الكاتدرائية الواسعة ، التهبت آلاف المشاعل . فغدا الليل نهاراً منيراً ، بتلك الانوار المتوقدة . . . واني احدثك كيف يبدأ الطواف :

تجتمع جماهير الزوّار بعد العشاء عند المغارة العجائبية ، كل يحمل شمعة . وبينما يتلون السبحة ، يشعلون الشمع . فيمتد اللهيب من واحد الى آخر ، وتنقلب الساحة الى نيران نائرة . ويبدأ الطواف ، فيتجهون نحو مسالك الساحة ، إزاء نهر الكاڤ (Le Gave) وهم لا ينفكون ترتيلاً وتسبيحاً . . . آه ما اروعه منظراً ، وما انقاه مشهداً ! . . . تسير الجموع رتلاً رتلاً الى منتهى الميدان الشاسع الممتد امام الكاتدرائية . . فينثنون حول الصليب البريطاني قافلين الى الباحة . وما ان يجتازوا تمثال العذراء المتوجة ، حتى يبدأوا برسم حلقات كتلويات الافاعي . . . والحشد في ازدياد على الدوام بالزوّار والسياح والمشاهدين .

انيرت الكاتدرائية من الخارج بآلاف المصابيح الكهربائية الشديدة السطوع ، وارسل على قمتها نور كشافي من قلعة لورد يبهرها . . وتزيدك خشوعاً وروعة ، في وسط هذه المشاهد التقية ، الصليب الكبير النائر ، المطلّ على لورد من قمة (Pic de Jer) . فهناك على ذروتها ارتفع نحو السماء رمز التضحية والمحبة والرجاء ، مجللاً بالنور البهي الساطع ، في كبد الليل البهيم ، يشرف على البلدة التقية من اميال عدة . فانت تنظر اليه ، وتختلجك الذكرى الاليمة ، لعشرين قرن خلت ، وتسمو بك نحو جبل الجلجلة ، جبل الفداء . وتكاد تستعرض في مخيلتك ، بوضوح وجلاء ، فادينا الحبيب ، لاسمه السجود ، مصلوباً على خشبة العار ، يجود بروحه الالهية ، محطماً قيود العالم الخاطئ الشريرة ! . . . ثم تسمع هذا الحشد يصرخ مرتلاً : السلام ، السلام ، السلام يا مريم (*Ave, Ave, Ave Maria*) فتكاد نفسك تسيل أسى وندماً ، وتنتعش تقوى . وقد يغشاك نوع من الرهبة الدينية ، لا تنفك تغيره ، ويعجزك معرفة كيانه ! . . . وتشتد الاصوات المنشدة : السلام ، السلام ، السلام يا مريم ! . . .

زياح القربان الاقدس

ليس من مشهد في لورد باعظم وقعاً ، واشد رهبة تنفذ في النفس ، وتتغلغل في مكامن العواطف ، فتستثير كوامنها ، وتبعث هواجسها ، من طواف القربان الاقدس . . . في تلك الساعة ، حين يصرخ المرضى والمدنفون مسترحمين الحمل الفادي ، المستتر في القربانة . . . ما انفذه اثراً في نفس مشاهده ! أخالك تقرني انه الاثر الوحيد ، الذي لا يمحى مشهده من الفؤاد ، مهما طال الزمن ، ووالت عليه الاعوام . فتلك الوجوه الشاحبة ، تلك الوجنات المحتقنة بالدعاء ، تلك العيون الثائرة ، تلك الاجسام المزيلة ، تلك الاعضاء الضئيلة ، تلك الافواه المتمتمة ، تلك الايدي الناحلة تعد حبات المسبحة ، او تنبسط نحو السماء ، او نحو القربانة ، تلك الهياكل البشرية المسجاة على المحامل ، ثم تلك التنهدات الحرى ، تلك الدموع الحزينة الواجية ، تلك الصلوات الخافتة ، تلك الطلبات الاسترحامية التقية ، المرددة من افواه هذه الكتل

البشرة المتألمة ؛ كل هاته المشاهد الاليمة ، لا شك انها تاركة في اعمق اعماق فؤادك لوعة وحرقة ، لا تمحوهما يد الدهر ، وان كنت كافراً جاحداً ملحداً . فلو عدم المرء الاحساس ، واضمحل فيه الشعور ، لن يبارح لورد ، الا وفي نفسه أثر اي أثر ، أثر الم وحرقة ورهبة ...

يبدأ اجتماع الزوار ، منذ الساعة الثانية ظهراً . وتترافد المرضى زرافات زرافات . وكلهم محمول على عربة نقالة أو مسجى على محمل . يقودها ، او يحمله المتطوعة ، فيؤخذون قبلاً الى غرفة حمام صغيرة ، بالقرب من العين العجائبية .. ثم ينقلون نحو مسلكي الكاتدرائية فيصفون الواحد تلو الآخر في صفوف متتالية .

ويصطف الزوار في صفين على جانبي الطريق المؤدي من المغارة الى الساحة ، يراقبون نقل المرضى ، وهم يصلون وينشدون بعض تلك الاناشيد « الوردية » ويرتقي عادةً احد الكهنة المنبر المقام على باب المغارة العجائبية ، فيعظ الجماهير الخاشعة .

ويظل الامر كذلك ، الى الساعة الرابعة ، والزوار في توافد دائم واحتشاد ، فيملأون عشرات الالوف ، ثم يبدأ الطواف القرباني ، تتقدمه صفوف من الفتيات المرتديات الاوشحة البيضاء ، باعلامهن . فالشبان ، فالرجال فبعض الضباط العسكريين والجنود ، وكذلك بعض الضباط البحريين ، وبعض البحارة ، وقد حملوا في احد الايام بارجة مصغرة ، يتلوهم الكهنة ، فالمظلة القربانية يحملها بعض كبار الضباط والمدنيين من اعضاء البرلمان أو المجمع العلمي وسواهم من عظماء البلاد ، يحوطها بعض الاساقفة ... ويسلكون في الزياح مسلك طواف المشاعل ، والاسقف حامل المصمد[1] يبارك في كل آونة الجمع المحتشد على جانبي باحة الوردية ، في حين يصطف بعض الكهنة في الساحة ، كل منهم يرشد الجماعة ، ممن يواجههم ، في التراتيل والصلوات .

---

١) في كثير من الاحيان ، يحمل المصمد احد الكرادلة . وقد قام بذلك ، سيدنا قداسة البابا الحالي ، حين كان رئيس اساقفة ميلانو . اما اثناء الزيارة الافرنسية هذه ، فقد حمل المصمد ، اسقف لورد وتارب .

واذا ما اتم الاسقف الدورة بالمصد ، وقفل حتى تمثال العذراء ، التي حُمل بها بلا دنس ، ترك المظلة هناك ، وخرج الى الجانب الايسر يبارك كل بضع خطوات قصيرة ، مَن امامه من الزوار والمرضى . فيخرّ الاصحاء سجّداً خشوعاً للاله المتواضع المتجسّد في سرّ القربان . امّا المرضى الراقدون فيكتفون بتلاوة بعض الصلوات ، واسترحام السيد المسيح ، في دموع وتنهدات .

وعند ابتداء هذه البركة ، تبطل الاناشيد ، ويقف في وسط الساحة الواسعة ، احد الكهنة ، فيتلو الطلبات ، والجمع يرددها ، ومنها :

« يا سيد اننا نعبدك ... يا سيد اننا نؤمن بك ... يا سيد اننا نحبك ... انت المسيح ابن الله الحي ... انت سيدي والهي ... اوشعنا اوشعنا لابن داود ... يا سيد اننا نؤمن ، فزد ايماننا ... انت القيامة والحياة ... يا سيّد اذا اردت فانت تشفيني ... يا يسوع الذي احيينا كثيراً ارحمنا ... يا يسوع يا ابن داود ارحمنا ... يا سيد ان الذي تحبه مريض ... يا سيد رد بصري ... يا سيد اجعلني اسمع ... يا سيد قل كلمة واحدة فاشفى ..

يا والدة المخلص صلي لاجلنا ... يا باب السماء صلي لاجلنا ... يا ملجأ الخطاة صلي لاجلنا ... يا ملجأ النصارى صلي لاجلنا ... يا سلام المرضى صلي لاجلنا .. يا معزية الحزانى صلي لاجلنا ... يا سيدة لورد صلي لاجلنا ...

ايتها الطوباوية برنادت صلي لاجلنا ... »

وانك لتشاهدنّ جميع هذه الربوات تردّد الطلبات ، بحرارة وتقوى فائقتين ، وانك لتشعرنّ بها تصعد من قلوب الجميع بصدق واخلاص حقيقيين ، الى السماء تستمطر نعم القادي الحبيب ووالدته القديسة . والكل يأملون الرحمة والجميع يرجون النعمة . والمرضى بنوع خاص يرددونها بقوة وتلهف . ولتشهدنّ ذلك عندما يعيد الكاهن الطلبات الشفائية : « يا سيد اذا اردت فانت تشفيني ... يا سيد ان الذي تحبه مريض ... يا سيد قل كلمة واحدة فأشفى ... » وتشاهد الدموع تهطل بغزارة من عيونهم الغائرة المحملقة ، وايديهم ترتفع في ارتجاف نحو السماء ، او نحو المعرض ، وشفاههم تتمتم الطلبات ، وهناك على النقالات والمحامل تتسدد كل الامراض والعاهات ، كل الاعمار وكل المهن . هناك تبصر الشاب والفتاة ، الشيخ والعجوز ، الصبي والصبية ، الجندي والمدني ، الكاهن والعلماني ، المالك والاجير ، الغني والفقير ، العظيم والحقير ، وجميع ما

حوته الانسانية من طبقات وتفاوتت. كلهم امامك منهكون يسترحمون عطف الرحمن ... واني اصدقك الخبر ، اني كثيرًا ما اشحت بوجهي عن هذه المناظر المؤلمة ، وكثيرًا ايضاً ما انهملت قطرات دمع من عيني ... والآن ، وانا اذكر مشاهداتي هذه ، اشعر بفؤادي يكاد ينوء بالذكرى ، بل اشعر به يكاد يثب حرقةً وجوى وتحنناً على اولئك البؤساء المساكين ، الذين اختارتهم العناية الربانية الكلية الحكمة ، محملًا لآلام البشرية المتعذبة . تعالت حكمة المولى ! .

درب الآلام

« لانه احاطت بي كلاب كثيرة . جماعة الاشرار اكتنفتني . ثقبوا يديَّ ورجليَّ واحصوا كل عظامي
(مز ٢١ : ١٧-١٨)

يواجه النزل تلٌ قريب نصبت عليه مواقف درب الصليب ، فكنا نسمع صلوات وتراتيل السائرين.

وقد اسرعت في صباح اليوم التالي — بعد ان قطعت لورد طولًا وعرضاً بسيارة رفيقي ابن رب النزل — الى ارتقاء الهضبة ، كي لا يفوتني رتبة مراسيم الزيارة ، اذ لا ادري متى اسعد مرة اخرى بزيارة مدينة العذراء المجيدة.

ولاحدثنك عن درب الصليب هذا الذي يقوم على هضبة تسمو من ظهر الكنيسة العليا ، نصبت على دائرتها المحطات الاربع عشرة ، بشكل لطيف جميل ، على مسافات متفاوتة ، ذات اشراف بديع على البلدة.

اسرعت الخطى ، وتوقفت الارتفاعات الاولية ، على امل ان ادرك بعض الجماعات المترشدة بكاهن . وما كدت اعتليها قليلًا حتى وجدت نصب ملك ، في يده اليسرى صليب رقمت عليه هذه الكلمات : (*In Cruce Salus*) يشير الى الطريق . يتلوه عن قليل صليب آخر ضخم عظيم ، تكتنف ملامح مصلوبه تأثرات عميقة . وذراعاه مبسوطتان نحو المدينة ، كأنه يباركها. وعلى بضع خطوات صليب آخر مرمري كبير ، مقام على مذبح ؛ هو رمز مؤلم رُفع لتخليد ذكرى اولئك الزوّار النساء الذين قتلوا في زيارتهم بانزلاق القطار عن القضبان ؛ وقد نقشت اسماؤهم الثلاثة والثلاثون ، على القاعدة ، مع رقم

« زيارة الآلام » .

وما تلبث ان تصل الى السدرج المقدس (*Scala Santa*) ، المؤلف من ٢٨ قطعة من المرمر الناصع البياض — متوجة في اعلاها ، بعدّة تماثيل ترمز الى السيد المسيح له المجد ، امام بيلاطس البنطي ، وحواليه بعض القوّاد والجنود . وهذا الدرج سلم تقليدية لتلك التي استعلاها مرتين فادينا الحبيب في اورشليم ، ودماؤه القدسية تنضح عليها . ولذلك ففي لورد يحتم على الزوار الذين يريدون تسنمها الّا يطأووها بأقدامهم . فهم يصعدون عليها جثاة على ركبهم . ومنهم من يتلو السبحة اثناء ذلك . ومنهم من يلثم الدرجات . واني لا اكتمك ان الضعف البشري تملكني حينذاك ، فعبرت عن استعلائها ، وقصدت المرحلة الاولى ، ومن هنا يبتدىء درب الصليب ؛ وكل تمثاله بالحجم الطبيعي ، تحفق عليها صورة الحياة ، فتجعلها امضى تأثيرًا واوفى ذكرًا . وتتألف المرحلة من جملة اشخاص ؛ لا يقل عددهم في كل منها عن ستة او سبعة . اما المرحلة الثانية عشرة فتتألف من اربعة عشر شخصاً ، وهي اكبر المراحل واهمها ، اذ فيها تمّ الفداء العظيم ، وغفرت الخطيئة ؛ وارتفع اله البشر المتجسد ، على خشبة العار ، بأمر بيلاطس الجبان .

لحقت بجماعة واتممت معهم هذه الرتبة السامية ، والكاهن يعظنا في كل مرحلة ، ويرشدنا الى سلسلة الآلام ، التي اراد الفادي الالهي ، عبورها لفداء عبيده الخطاة . . . ولطالما ابصرت ترقرق الدموع في مدامع المجتمعين ، لاسيما حين بلغنا المرحلة الاخيرة ، ووقد يسوع الجدث في المنارة . اذ افاض الاب الخطيب ، وطلب منا السجود برهة لتلاوة صلاة قصيرة .

قضيت هذه الرتبة في تأمل وتفكر ؛ فكنت ارى في هذه التماثيل صورة ناطقة حية ، للاربع عشرة مرحلة التي مر بها ربنا والهنا كالحمل الوديع ، لتتمم الفداء العظيم . . .

واكملت طوافي بالهضبة ، وهبطت من جانبها الآخر نحو المغارة العجائبية . . وهذه الدورة تبلغ من بدء درب الصليب الى ختامه نحوًا من كيلومتر ونصف ونيف .

(لها بقية)